﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾

[الحج: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إنعام الله موصولٌ بعبوديّة الخلق إليه

بعد أنْ حفّز القرآنُ الكريم الحجيج قُصّاد بيت الله العتيق في الآية السّابقة على نيل المنافع والمآرب الَّتي يحبّونها من أمور الدنيا والآخرة، والتي غَيّا بها إتيانهم وعلّل بها تلبيتهم؛ أخبر في هذه الآية الكريمة عن إتمام مواجب الحجّ وأركانه، من إزالة ما علق بأجسادهم وتوفية نذورهم والطواف بالبيت طواف الإفاضة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لۡيَقۡضُواْ﴾: أصل (قضي) يدلّ على إحكام أمْرٍ وإتقانه وإنفاذِه لِجِهَتِه، والقضاء: إحكامُ الشَّيء والفراغ منه؛ ولذلك سُمّي القاضي قاضيًا؛ لأنّه يُحكِم الأحكام ويُنفِذُها[1]، والمُراد بالقضاء هنا الإتمام والتأدية.

2) ﴿تَفَثَهُمۡ﴾: (تفث) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ في الآية الكريمة الَّتي نحن بصدد تفسيرها، وقد عرَّف أبو عُبَيْدَةَ التَّفَثَ بأنَّه قَصُّ الأظافِرِ وأَخْذُ الشّارِبِ وشَمُّ الطّيبِ وكُلُّ ما يَحْرُمُ عَلَى المُحْرِمِ إلّا النِّكاحَ[2]، وقال الزَّجّاج: لا يعرف أهلُ اللُّغة التّفَث إلّا من التَّفسير[3]، ونقل النّيسابوريّ إجماع المُفسِّرين على معناها فقال: وأجمع أهل التَّفسير على أنَّ المُراد بالتَّفث هنا: إزالة الأوساخ والزوائد كقصّ الشّارب والأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ: (قضي).
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 119.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/ 423.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 78.

3) ﴿نُذُورَهُمْ﴾: جمع (نَذْرٍ)، وأصل (نذر) يدلُّ على تخويفٍ أو تخوّفٍ، وتناذروا: خوَّف بعضُهم بعضًا؛ ومنه النّذْر وهو أنّه يَخاف إذا أخلف[1]، والنّذْر أن توجِب على نفسك ما ليس بواجبٍ لحدوث أمرٍ[2]؛ ومعناه التزامُ واجبٌ في الذّمّة، سواء أكان واجبًا في أصله كالفرائض، أم واجبًا لعارضِ إلزام النّفْس بما لا يَلزم، والمُراد بالنُّذور هنا: "مواجب حجّهم، والعرب تقول لكلّ من خرج عمّا وجب عليه: وفّى بنذره، وإن لم ينذِر، أو المُراد ما ينذِرونه من أعمال البِرّ في حجّهم"[3].

4) ﴿ٱلْعَتِيقِ﴾: أصل (عتق) يجمع معنى الكرم خِلقةً وخُلُقًا، وأيضًا معنى القِدَم[4]، والعَتيقُ: المُتقدِّم في الزَّمان أو المكان أو الرّتبة، ولذلك قيل للقديم: عَتيقٌ، وكذلك للكريم، ولِمَن أُعتِق من الرِّقّ[5]، سمَّى اللّهُ البيتَ ﴿ٱلْعَتِيقِ﴾؛ لأنّ الله أعتقه من الجبابرة؛ فلم يَظهر عليه جبّارٌ قطُّ، وكذلك لقِدَمه؛ لأنّه أوّل بيت وُضع للناس[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

خير الرّزق ما يُستعان به على تأدية الفرائض

بيّن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة ما يفعلونه بعد تحلُّلِهم وخروجهم من الإحرام؛ فأمرهم بأن يُزيلوا عنهم أدرانهم وأوساخهم، وليوفوا نذورهم التى نذروها لله ﷻ في حجّهم، وليطوفوا طواف الإفاضة بهذا البيت القديم الَّذي جعله الله أوّل بيتٍ لعبادته، وصانه من اعتداء كلّ جبّار أثيم[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نذر).
(2) الرَّاغب، المُفردات: (نذر).
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 438.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عتق).
(5) الرَّاغب، المُفردات: (عتق).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (عتق).
(7) طنطاويّ، الوسيط: 9/ 304.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ﴾ ونكتة العطف بـ﴿ثُمَّ﴾:

التفرّغ لأداء الواجبات بعد الاستنشاط بالمنافع والمآرب

جملة ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾ معطوفة على جملة: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾، وهو من عطف الجُمَل[1]، ولو قيل: (ثم يقضوا) من غير لامٍ لكان كذلك، إلّا أنّ القرآن كرّر اللّام فدلَّ ذلك بقوةٍ على العطف المذكور، والعطف بـ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾ للتّراخي الرُّتبيّ؛ فالمعطوف بها أهمّ في الغرض المسوق له الكلام من المعطوف عليه، ذلك أنّ قضاء المناسك والوفاء بالنُّذور والطَّواف بالبيت أهمُّ من نَحْر الهدايا[2].

غرض المضارعة المُقترن بلام الأمر: ﴿لۡيَقۡضُواْ﴾ و﴿وَلۡيُوفُواْ﴾ و﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ﴾:

لامُ الأمر أوسعُ في مجال الطّلب من لام الأمر فلا تقتصر على خطاب المعلوم

المُضارع المُقترن بلام الأمر لا يدلّ على الطَّلب بنفسه؛ بل بواسطة لام الأمر الطَّلبيَّة المُقترنة به، وهو أوسع من فعل الأمر بالنِّسبة للمخاطب وغيره، فلام الأمر تدخل على مضارع الغائب المعلوم، وعلى الغائب المجهول، وعلى المخاطَب المعلوم، وعلى المخاطب المجهول، وعلى المتكلّم المجهول، وهو - هنا - أفاد الطَّلب من الموجود الغائب بواسطة الرَّسول؛ فالخطاب فيه لإبراهيم عليه السلام، كأنّه قيل: قل لهم أو مُرْهم بقضاء تَفَثِهم، والتّركيب يدلُّ على الغيبة لأنَّه ورد بالياء ﴿لۡيَقۡضُواْ﴾[3].

تنوُّع القراءاتِ في قوله تعالى: ﴿لۡيَقۡضُواْ﴾:

توجيهُ القراءةِ على المعنى المُتعدِّد أوْلَى من التَّوجيهِ على المعنى الأُحاديِّ

قُرئ تواترًا بتسكين اللّام (وهي قراءة الجمهور) في قوله: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ﴾ على أنّها لام الأمر، كما قُرئ تواترًا أيضًا بكسر اللّام وهي قراءة ورش، وابن عامر، وأبي عمرو، وقنبل، ورويس[4]: ﴿لِيَقۡضُواْ﴾؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 248.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 248.
(3) درويش، إعراب القرآن: 7/ 412.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 326.

فيصحّ اعتبارها لامَ الأمر أيضًا؛ لأنَّ لام الأمر بعد (ثُمّ) يصحّ فيها وجهان: السُّكون أو الكسر، ويصحُّ اعتبارها - على قراءة الكسر - لام العِلّة، ويكون اللَّفظ خبريًّا لا إنشائيًّا، وموقعه العطف على: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ﴾؛ أيْ: (ليشهدوا ثمّ ليقضوا)[1].

وبالحمل على لام الأمر تحصُل المُغايرة بين المعطوف عليه والمعطوف؛ للتَّنبيه على خطر المعطوف وعظيم أهمّيَّتِه في السّياق على ما يُفْهِمُه التَّعبيرُ بـ: ﴿ثُمَّ﴾، وعلى الحمل على تكرار لام العلَّة يكون في تكرارها إشعارٌ بأهمّيّة ما دخلت عليه؛ لإشعارها باستقلال ما بعدها، وأنَّه يجب تحقيقه باعتناء واهتمام ورعاية، ويؤيدُه التّعبيرُ بـ: ﴿ثُمَّ﴾ أيضًا.

دلالة الإضافة في ﴿تَفَثَهُمۡ﴾ و﴿نُذُورَهُمۡ﴾ ونكتة صيغة (نذور):

جمع النُّذور لاعتبار الكثرة المتوزِّعة

أُضيف التّفث إلى ضميرهم في قوله: ﴿تَفَثَهُمۡ﴾؛ لتعريف التّفث وتعيينه، وهو التّفَثُ المُتعلِّق بالحجيج، وفيه تنبيههم على إرادة الخير بهم في أبدانهم؛ إذ كان من المُمكن أن يُقال: (ثم ليقضوا التفث)، ومثل هذا يُقال في قوله: ﴿نُذُورَهُمۡ﴾؛ إذ كان من الممكن أن يُقال: (وليوفوا النذر)؛ والخيرُ هنا معنويٌّ أصالةً؛ وكل أولئك ذوو صلة بسياق الامتنان؛ ولذلك استحضر القرآن جميع نذورهم على كثرتها وتنوعها؛ فعبر بصيغة الكثرة: (النذور)؛ لأنّ الوفاء يحصل من جمْع النّاس لِنذورٍ كثيرةٍ متوزّعةٍ عليهم؛ فجمع النُّذور لاعتبار الكثرة المُتوزِّعة.

بلاغةُ المجاز في التَّعبير بالنُّذور:

كلٌّ من الفرض والنَّذر يشغل الذِّمّة على جهة الإلزام

إذا أُريد بالنُّذور مواجِبُ الحَجّ وأركانه؛ فالتّعبير بالنّذور استعارةٌ تصريحيّةٌ، حيث شبّه الفرض الواجب بالنّذر بجامع الإلزام في كلٍّ، والعرب تقول لكلّ مَن خرج من إلزام ما وجب عليه بأدائه وفَّى

(1) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 326، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 41.

بنذره، وإن لم ينذِر؛ لأنّه قد أدّى الإلزام من غير اعتبار الفرق: هل كان هذا الإلزام إلزام الشّارع عليه، أو كان إلزامًا منه على نفسه بالنّذر[1]، ويجوز أن يكون تسمية أركان الحجِّ بالنُّذور مجازًا مُرسلًا علاقتُهُ الإطلاق والتَّقييد، أو تسمية العامِّ باسم الخاصِّ؛ فالفرض أعمُّ، والنَّذْر أخصُّ، والحملُ على الاستعارة أوْلَى؛ لأنَّها ألصق بمعنى الوفاء في قوله: ﴿وَلْيُوفُواْ﴾؛ لِما فيها من تشديد حصول الفعل؛ إذِ الإلزام هو المعنى الجامع بين طرفيْها.

دلالة صيغة (التفَعُّل) في ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ﴾:

صيغة تفعُّل تدلُّ على التّكلُّف والتّدرُّج وتجويد الفعل

أصل الفعل في قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ﴾: يتطوّف (يتفعّل تفعُّلًا)، وصيغة التَّفعّل تدلّ على التَّكلّف، وعبّر بتلك الصّيغة لطلبِ المبالغة في تحسين الطّواف وإيقاعه على أتمّ الوجوه؛ لأنّ ما يُتَحرّى التّكلّف فيه يقع تامًّا على أحسن ما يكون[2]، ولا يخفى ما فيه من تعظيم أمر الطَّواف، وفي التَّفعُّل أيضًا إشارة إلى أنَّ المقصود هو طواف الرُّكْن، فتكون الصّيغة للتَّشديد على الوجوب بقرينة قضاء التّفَث؛ فإنّه يكون بعد التّحلّل الَّذي يكون بتمام ركن الطّواف[3]، وأيضًا صيغة التّفعُّل تدلُّ على التّمهُّل والتّدرّج، فاستعمالها يدلّ على هيئة الطّواف الَّتي تقع بتُؤدةٍ وتريّث، وتدلّ على التّدرُّج في أشواطه تصاعُديًّا حتّى تمامها.

غرض تقييد الطَّواف ﴿بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾:

هـذا الطَّـواف بـأصـل البـيت كـأنَّـه طـواف بالبيت كلّه

جاء تقييد الطّواف بالبيت في قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ لتعيين أنّه طواف العبادة الكائن حول البيت، والكلام على حذف مضاف؛ أيْ: بأصل البيت أو بكامل البيت؛ ليقع الطَّواف من وراء الحِجْر المُسمّى بحِجْر إسماعيل، وليقع حول كلّ البيت لا بعضه،

(1) النَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 438، وابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد بهامش القُونويّ: 13/ 52.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 52.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 52، وأبو زهرة، محمد أبو زهرة: 9/ 4976.

وفي حذف المُضاف تنبيهٌ على أنَّ هذا الطَّواف بأصل البيت كأنَّه طواف بالبيت كلِّه، والباء في قوله: ﴿بِٱلۡبَيۡتِ﴾ للمُلابسة أو الظَّرفيَّة، كأنَّه قيل: طوفوا بمكان البيت - بموضعه، وهو يُؤدّي للملابسة؛ أيْ: مُلابسين لمكانه.

بلاغة: الاستعارةِ والصّيغةِ في ﴿ٱلۡعَتِيقِ﴾:

مـــن الـسُّـــنن القَدَريّة الثّابتة كـــون الـبـيـت الحرام عتيقًا

وصفُ البيت بالعتيق لكونه محرَّرًا من ولايات الجبّارين عليه، وفيه استعارةٌ تصريحيّة حيث شبَّه البيتَ بالعبد العتيقِ، بجامعٍ معنويٍّ في كُلٍّ، وهو عدم الخضوع لولايةٍ تُخرِجُه عن قانونه الَّذي أراده الله عليه[1]، وقد وصف البيت بالعتيق على صيغة (فعيل) صفةً مُشبّهةً بمعنى اسم المفعول؛ أيْ: مُعتَق بمعنى مُحرَّر من كلِّ سوءٍ، أو عتيقٌ في الوجود بمعنى قديم؛ فهو أقدم مسجدٍ وضِعَ للنّاس، والصِّفة المُشبَّهة - هنا - تُفيد ديمومة الصِّفة للموصوف وأنَّها تجري منه كما تجري الطَّبائع والسَّجايا في أصحابها؛ كأنّه قيل: البيتُ دائمُ العِتْق[2]، وفي مجموعِ ذلك تنبيهٌ على أنَّ الدّين الإسلاميَّ الَّذي من شعائره الطَّوافُ بهذا البيت العتيق إنَّما جاء ليُحرِّر النّاس من العبوديَّة لبعض النّاس لعبوديّة ربِّ النّاس، وذلك من ثوابتِهِ في كلِّ عَصْرٍ ومِصْرٍ وجِنْسٍ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 250.
(2) فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص: 83.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»